الفصل السادس:

الحضارة الكنعانية..

ملامحها، سماتها، ومظاهرها

مجدولين أبو الرب

بالرغم من قلة الكشوف الأثريه التي توصل لها العلماء بخصوص " الحضارة الكنعانية "، إلا أن القليل الذي وصلت كان كفيلا بالكشف عن حضارة حية غنيه وراقيه عند العرب الكنعانين، ليس هذا فحسب، لكنها، أيضًا، تقدم دلالات واضحه على أن ما يدعيه اليهود من مؤشرات حضارية، وخاصة ما تعلق بالأدبيات، إن هو إلا سرقات حضارية، وأن ما يدعى " حضارة اليهود " أو " حضارة العبرانيين " أخذت قاعدتها العريضة عن الحضارة الكنعانية نقلاً وانتحالاً.

وللبحث عن موضوع " الحضارة الكنعانية "، إعتمد الباحثون العرب على نتائج الرحلات الاستكشافية للباحثين:

وعلماء الآثار الأجانب، وحول ذلك يمكن ملاحظة ما يلى:

- جاء الإهتمام بالمنطقه والتنقيب عن آثارها متأخرًا، ويعود ذلك إلى بدايات القرن الماضى تقريبًا.

- نشرت نتائج البحوث التي أجراها علماء الآثار والتاريخ من أمريكيين وأوروبيين بلغاتهم، فجاءت المراجع بلغات أجنبيه، أما المراجع

العربيه (الترجمات) فهي قليله جدًا، ناهيك عن ندرة الأبحاث الأثريه الخاصه ببعثات عربيه.

- اعتمد الباحثون بشكل رئيس على المكتشفات الأثريه، والتي تم تفسيرها من منطلقات المنقبين، وخلفياتهم وأهدافهم، وكان معظمها متحيزًا للجانب الصهيوني.

- انصبّ اهتمام الباحثين في القرن الماضى، ولا سيما علماء التوراة، على فترات العصر الحديدى، من أجل توضيح، أو اثبات صحة الكتاب المقدس، وسعى الصهاينة العاملين في الأثار، وعلماء الأثار المنحازين للصهيونيه، إلى ربط العصر الحديدى بالتاريخ اليهودى، لإيهام العالم بالحق التاريخى المزعوم لليهود في فلسطين، ورافق ذلك اغتصاب المادة الحضارية، وتشويهها بالربط القسري، بين المكتشفات الأثريـة، والعهد القديم. ولكن دراسة الآثار، والتاريخ، لا تعطى، ولا تسلب حقًا، ثم أن فصول العهد القديم، التي تتضمن معلومات تاريخيه كتبت من وجهة نظر معينه لم تكن معاصرة للأحداث نفسها. (١)

لكن ذلك لم يكن ليخفى الحقائق، سيما وأن بعضها كان ساطعًا سطوع الشمس ليجلو أى زيف أو انتحال، فبرزت مظاهر الحضارة الكنعانية، بفضل بعض العلماء ممن تحلّوا بالموضوعيه والنزاهه، أمثال العالم هـ. ى. ديل ميدكو في كتابه (التوراه الكنعانية)، والذي جاء ترجمة للوحات الفخارية، التي عثرت عليها، بعثة السيد شيفر، في أوغاريت القديمه (رأس الشمر)، وكانت دراسه العالم " ميدكو " لتلك الألواح واحدة من عشرات الدراسات، لكن ما قام به هذا العالم من جهد في الفترة (١٩٤٣ -

١٩٤٧) في باريس، مكّنة من دراسة وترجمة أدب أوغاريت الكنعانى عبر النصوص المكتشفه، واستطاع ان يزيح حجاب الغموض عن كتاب التوراة، لا بل فسر المعجزة بقوله: " إن التراث اليهودى مأخوذ من التراث الكنعانى، وفي قسم آخر عن تراث بلاد الرافدين " [٢].

العرب الكنعانيون:

خرج الكنعانيون موجه واحدة من الجزيرة العربيه مع العموريون في آواخر الألف الثالث قبل الميلاد، ولكن المؤرخون كانوا يتميزن عادة بين العموريين، والكنعانيين، وظلوا على ذلك وقتًا طويلاً، ثم اتضح أن الاختلاف بينهما هو في التسمية، فحسب، ومرده بالأساس إلى أسباب جغرافية، فالذين استقروا غرب بلاد الرافدين مباشرة، عرفوا بإسم العموريين، بدءً من مطلع الألف الثانى قبل الميلاد، لأن " عمور " تعنى " الغرب " لدى سكان الرافديين. وأطلق على من استقر منهم على ساحل بلاد الشام، وفي جنوبها (فلسطين) اسم كنعان، وقد عرفهم اليونان على ساحل بلاد الشام باسم الفينيقيين [٣].

كانت الجزيرة العربية، منبت العرب، قد شهدت هجرات واسعة متجددة، إلى ما حولها من المواطن البشرية، وكوّن أولئك العرب حضارت بابل وأشور وأرام وكنعان وفينيقيا. اخترعوا الزراعه فاستنبتوا الأرض، وأنسوا الحيوان، وإستخرجوا المعادن وصنعوها، وشيدوا المدن، والمعابد، واخترعوا الأبجدية، فكتبوا، وبرعوا في الفنون التشكيلية، فأنتجوا الروائع منها نحتًا وتصويرًا، وسنوا القوانين، وابتدعوا التنظيم الإدارى التجارى، وأسسوا النظم السياسية، واستخدموا السفن،

فعلوا كل ذلك بمبادرتهم، وبتفاعلهم مع الشعوب حولهم، فرسموا بذلك كله خطًا جديدًا للحضارة الإنسانية، تناقلتها عنهم شعوب الشرق والغرب [٤].

بهذا الصدد يقول الدكتور " مورغات ": " أننا نعلم من خلال الحفريات التي أجريت في جبيل في ساحل بلاد الشام، أن أناسًا ساميين غربيين، قد قطنوا بلاد الشام على الأقل، منذ نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد، وأن هؤلاء كانوا على قرابة مع تلك الفئة السامية التي حكمت بلاد ما بين النهرين من سلالة حمورابى. أما من ناحية التسميه الخاصه، فنطلق على هؤلاء الساميين في بلاد الشام اسم الكنعانيين، ولغتهم يجب أن تكون نفس اللغة، التي اقتبسها أولئك اليهود اللذن نزحوا إلى الأرض المقدسه من السكان الأصليين قبلهم هناك، أى من الكنعانيين، وكذلك ينتسب الفينيقيون الأوائل أى سكان السهل الضيق ما بين لبنان والبحر إلى هذه المجموعه الساميه الغربيه أيضا [٥].

الفينيقيون هم من علّموا العالم كله فن الملاحة البحرية، وصناعة السفن، والأبجدية، والتعدين، وابتكروا العجلة، وأبدعوا في الصناعات اليدوية الدقيقة، والزجاج وفي علم الحساب، والنجوم، والأبراج، وهم من اكتشف كروية الأرض، ودار حول أفريقيا، واستخدم النجم الفينيقى (نجم القطب) في الملاحة، وفوق هذا كله كانوا أول أمة في التاريخ تاجرت في البر والبحر، وتصل موانئهم على البحر المتوسط بمراكزهم على الخليج العربي، حيث كانت لهم مدن تحمل الأسماء نفسها من إرواد وصور وصيدا[٦].

مقومات الحضارة الكنعانية :

توفرت للكنعانيين مجموعه من الشروط والمقومات التي هيأت لانطلاق حضارتهم، اعتبرت معظم هذه المقومات شروطًا للحضارة، وقبل الحديث عن تلك المقومات نتوقف قليلاً عند مفهوم " الحضاره " بشكل عام.

فالحضارة لغة (بفتح الحاء أو كسرها) تعنى في العربيه الإقامه في الحضر. اى في المدن و القرى بخلاف البداوة، وهى الإقامه المتنقلة في البوادى. فأصل المعنى إذن هو الإستقرار، الذي ينشأ عن زراعة الأرض، هو السبيل الذي تتاح فيه لأبناء المجتمع مجالات التطوير فإذا ولجوها، تقدموا في فنون اكتساب العيش، وبناء المدن، وتحصيل المعرفة، والانتظام الداخلي، والتعامل الخارجي، وكات لهم حظهم من الرفاة والإبداع ومن الحضارة بوجه عام [٧]. وقد دار مفهوم الحضارة عند العرب، عمومًا على ذلك النمط المتناقض للبداوة، والمنشئ للمدن، والأمصار. المستقر فيها المتصف بفنون منتظمه من الملك والإدارة، ومن مكاسب العيش، ومن الصنائع والعلوم، ومن وسائل الدعة والرفاه. وقد جاء ابن خلدون في محاولته استكشاف " طبائع العمران "، أى قوانين تطور المجتمعات، فجعل البداوة والحضارى طوريين طبعيين من أطوار المجتمعات البشرية، واعتبر الحضارات البشرية، واعتبر الحضارة آخر هذه الأطوار و " غاية العمران " [٨].

أولاً الإستقرار والنظام :

كانت أولى مقومات الحضارة عن الكنعانيين، وأهمها، الاستقرار

وزراعة الأرض. فالزراعة تعنى الثبات، وتقتضى أنواعًا من التعاون تفوق تلك التي تقوم في المجتمعات القنصية، أو البدوية، وتوفر موردًا للأمن، والاستمرار وتتيح الفراغ لصنع الأدوات، أو الإنصراف إلى أعمال لا تنحصر بمجرد تحصيل العيش، وحفظ البقاء، وبهذا فهي تفتح إمكانيات الإنسان، وتقوى فعله في محيطه وفي نفسه. وقد اتسمت أرض كنعان بالخصوبة، وبرع الكنعانيون في زراعتها، والاستفادة من خيراتها، وكانت زراعة الكروم والتين، والزيتون والقمح، من أهم المزروعات القديمة في كنعان. وعندما تصف مدونات الحاكم المصرى تحوتمس الثالث الغنائم التي أخذها من المدن الكنعانية، نجد في القائمه ٢٠٧.٠٠٠ كيس من القمح جلبها تحوتمس من كنعان [٩].

لكن الحضارة، تتطلب مستويات أعلى من التعاون الذي تقتضيه طبيعة العمل في الزراعة، يمكن أن نلمس ذلك من الجهود التي انبثقت منها الحضارت التاريخية الأولى، كإنشاء السدود، وحفر الأقنية الواسعة والمتفرعة، وغيرها. وقد توفر مثل هذا التعاون لدى الكنعانيين، لا أدل على ذلك من إنجازاتهم الحضاريه في مجال الصناعة، وركوب البحر، وغيرها مما سنتناوله لاحقًا.

كذلك، تتطلب حضارة من الحضارت قدر السلطة والنظام، ومن هنا تنشأ أنواع من الروابط الاجتماعية نجدها في كل حضارة من الحضارات مهما تكن أحوالها، ومن هذه الأنواع العادات والأعراف. ومن وسائل تنظيم المجتمع وتنسيق علاقات أفراده بعضهم ببعض وعلاقاته بالمجتمعات الأخرى، والشرائع والقوانين، ويرتبط بذلك التنظيم السياسي،

وما يتصل به من شؤون الحكم والإدارة [١٠].

وقد كان للكنعانيين، عاداتهم، وتقاليدهم، وأعرافهم، وشرائعهم المستمدة من فلسفة عميقه جسّدت نظرة الكنعانى للحياة، وارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالدين، وأخذت دورها في تنظيم المجتمع تغلغلت بعض هذه العادات، والتقاليد إلى اعماق نفوس الشعب، واختلطت بمشاعرهم، لتسرى في أشعاره وقصصه وأمثاله.

وكانت لديه الإدراة، وشكلاً من الحكم، وارتبط بمعتقداته، وقد عكست أشكال التنظيم هذه لون الحضارة الكنعانية، وخاصة شكل العلاقه بين الشعب / الآلهه / الحاكم، والتي سنتناولها في الجزء المخصص للحديث عن مظاهر الحضارة الكنعانية.

ثانيا الدين:

أما الفكر الدينى الكنعانى، فقد سما وتطور، ولعب دورًا مهمًا في حياة وأخلاق الكنعاني.

وللدين دلالة حضارية، فهو يتصل بجدور متغلغلة في الطبيعة البشرية، ولفهم أية حضارة من الحضارات، لابد من سبر غور الدين السائد فيها، وإدراك روحه وعقائده ونظمه، فهو من ناحية رابطة اجتماعية، تصل للناس ببعضهم، وتلبى حاجاتهم إلى التعاون والتشارك، وتؤلف بين قلوبهم وتنظم سلوكهم، وهو كذلك يتصل بموقف الإنسان من الطبيعه عندما يحاول استكناه أسرارها، واستكشاف القدرة التي تسيرها، وتحكمها، وهذا جذر ثان، أما الجذر الثالث، فهو ما تضطرب به نفس

الأنسان من أحاسيس، ومشاعر وبطبيعته الذاتية، فهو يحب ويكره، ويرضى، ويثور، ويتفائل، ويتشائم، ويفرح، ويألم، وهو بصفه خاصة يخشى الموت الذي يحرمه لذائذ الحياة، ويلقيه في أغوار المجهول [١١]. والدين يتجيب لهذه المشاعر ويضبطها ويوجهها فيجد فيه الإنسانما يهديه في حريته وما يقويه في ضعفه، ويرفعه ويرقيه في مراتب انسانيته [١٢].

وقد كان للعقيده التي يعتنقها الكنعانى تجسيدًا لإدراكه لما حوله، ولنفسه، وجمعت المعانى، والقيم، التي آمن بها، وكونت مصدرًا للقواعد السلوكية في الحياة الفردية والاجتماعية، وغدت أساسًا للتنظيم، ومصدرًا للحكم والإدارة.

كان الكنعانيون العرب أول من نطق بإسم الله خالق السموات والأرض، وكان يعرف بإسم " إيل " أو الإله أو الله في العربيه الفصحى. وكانت الديانة الكنعانية تعتبر من ارقى ديانات الأمم السامية الوثنية فعل الرغم من تأثير الثقافة المصرية، والثقافة البالبلية، فيها لاحتكاكها بهذه الثقافات، إلا أنها احتفظت بطابعها البدوي السامي، وبالتقاليد القديمه السائدة في جزيرة العرب، فكان أكبر آلهة الكنعانيون، وأعلاها مقاما الإله " إيل " الذي لقب بالإله العلى أو الإله العظيم. وقد اعتبر الكنعانيون جميع أرض كنعان أرض الإله إيل، وهو القادر على كل شيء، والحاكم المطلق لا ينافسه منافس، ولا يستطيع أحد ان يغير من إرادته وحكمه السامي، وقد تسمى بسيد الآلهه الحامى. وكلمة إيل أى الإله، أو الله كلمة عربية الأصل، ذلك لن ملوك العرب في الجزيزة العربيه قبل الإسلام كانوا يقرنون اسمائهم بإسم الإله ايل تيمنا وتبركا به. وعلى غرار ما

نستعمله الآن بإضافة اسم الله إلى اسم الشخص مثل عبد الله وعبد الإله وغيرها [١٣]. وقد ورد اسم الإله " إيل " في الكتابات الفينيقيه بإسم " ايل داجون " [١٤]. أو بصيغة " أيلوس " وهو الإله الكنعانى نفسه [١٥].

وحول الديانه الكنعانية يقول الدكتور ولفنسون: " للكنعانيين عدا تأثيرهم العلمي والصناعي على العالم فضل عظيم آخر، وهو التأثير الدينى في جميع الأمم السامية، فقد كانت ديانتهم أرقى ديانات الأمم الساميه الوثنيه، ولذلك تأثرت بها ديانات بابل، وورث الأراميون، والإسرائيليون، والعرب هذا التأثير [١٦]. وكان من أشهر ملوك الكنعانيين الموحدين " ملكى صادق " الكاهن الأعلى الموحد، ملك اورشليم الذي بارك ابراهيم الخليل، بإسم الإله العلى خالق لسموات والأرض [١٧].

ثالثا: اللغة والكتابة:

تعتبر اللغة والكتابة من وسائل التفاهم والتواصل في سبيل تعامل الأفراد وارتباطهم، وتربط المجتمع بسواه من المجتمعات، واللغة، وصورة من صور الحضارة، أما الكتابه، فتعتبر أساسًا من أُسس التحضر وشرطًا من شروطه، وتتخذ دليل من الأدله على انتقال المجتمع من مرحله " ما قبل التاريخ " البدائيه إلى مراحل التاريخ الحضاريه.

وتعّبر اللغة عن الحضارة من وجهتين رئيسيتين: والمفردات والتركيب. فالمفردات تدل على مدى سعة خبرات المجتمع وعمقها. وبالتالى على نوع الحضارة التي يتميز بها فحينما تكون الخبرات محدودة، تأتى مفردات اللغة محدودة المعانى ضيقة الدلالة والحضارة المعنية بالأشياء المحسومه تكون لغتها فقيرة بالألفاظ المعتبرة عن

الشؤون الفكرية والروحية [١٨].

وقد اعتبرت " اللغة الكنعانية " أصل اللغة العربية التي كانت مستعمله في العصر البرونزى. ويطلق عليها " لغة بيبلوس "، فهي ذات صلة اللغة العربيه التي كانت سائدة قبل الإسلام، وهذا ما استطاع العالم اللغوى " جورج واندل هول " من التواصل اليه عبر حل رموز النقوش الكتابيه التي تم كشفها في جبيل " بيبلوس " عبر المقارنات اللغويه التي قام بها، فوجد أن تلك النقوش تظهر علاقة وثيقه بين اربعة فروع للغات السامية: الأكادية وللغة إيبلا، والعمورية " الأمورية "، ولغة بيبلوس الكنعانية، ويذهب " هول " إلى القول بأن لغة بيبلوس الكنعانية المقطعية التركيب تعود بتاريجها إلى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد بل أقدم من ذلك بكثير [١٩] أى أن اللغة الكنعانية هي لغة من لغة أم مهدها الجزيرة العربيه تلونت محليا بعوامل جغرافية واقتصاديه وتارخيه [٢٠].

والكنعانيون، عندما أخذوا ينشئون الدول، ويرتقون في حياتهم، يقبلون على المعارف والعلوم لتتسع خبرتهم وتنضج حضارتهم، كان يواكب ذلك اتساع وتطوير في لغتهم. فتفرغت الألفاظ لتدل على تعابير فرعية، وذلك بالاشتقاق. ويرتبط ذلك بخصائص لغويه وذهنيه وتعود بدورها إلى خصائص ومميزات الحضارة. وهناك أيضا " دلاله التراكيب " في اللغة، أى كيف تؤلف هذه المفردات في جمل للتعبير عن الأفكار والمشاعر؟ ففي اللغات الهندية الأوروبية مثلاً، لا نجد جملاً إسمية، بل كل الجمل يجب أن تحتوى على فعل. أما اللغات السامية، ومنها الكنعانية فنجد الجملة الإسمية، تحتل مكانتها بجانب الجمله الفعلية، وهذه أيضا

تعكس خصائص اللغة، وبالتالى خصائص الحضارة التي تعتبر عنها [٢١].

أما ابتداع الكتابة فيعد عاملاً بارزًا من عوامل التكوُّين الحضاري وشرطًا من أوجب شروطه، ارتبط اختراعها وانتشارها بنشوء الحضارت وتطورها، فهي أداة ثابتة نافذة الفعل في النقل من جيل إلى جيل. ولما كانت الحضارة تتألف في جوهرها من المكاسب المتراكمة التي يحرزها الإنسان، فإن تلقى المكاسب والإنجازات الماضية، وحفظها، ونقلها مع المنجزات الجديدة إلى الإجيال المقبله هو نشاط من أهم الأنشطة الحضاريه [٢٢]. وهذا يؤكد أهمية تلك الخطوة الفاصلة التي أقدم عليها الكنعانيون، عندما كانوا أول من استعمل الحروف الهجائية في الكتابة. هذا ما اتفق عليه العلماء، فالكنعانيون كانوا أول من استعمل الحروف الهجائية في الكتابة، وهي الحروف التي اكتشفت في شبه جزيرة سيناء، ويعود تاريخها إلى سنة ١٨٥٠ ق. م، ومن الكنعانيين انتقلت الفينيقيين الذين نقولها بدورهم بين سنة ٨٥٠ و ٧٥٠ ق. م. إلى الإغريقية واللاتينية، وصارت تعرف في اليونانية باسمها العربي الأصل (الألف باء)، وقد احتفظت اليونان بالترتيب نفسه الذي وضعه الفينيقيون، ومن حيث تسلسلها، ومن حيث طريقة كتابتها من اليسار إلى اليمين، وفق الطريقه الأصلية [٢٣]. ويؤكد خبير اللغات " دايرنجر " أن مصدر اختراع الأبجدية (الفابيت) اللاتينية يرجع إلى منطقة فلسطين وسوريا، وهى تنفرد بين جميع مناطق الشرق الأدنى، في هذا الاختراع الذي يمثل شبه جسر يجمع بين حضاري مصر وبلاد الرافدين. كما يؤكد د.

ولفشون: " أن الخط الكنعاني (الأبجدية) وهو من صنع الكنعانيين، واختراعهم وحدهم لأنه دليل مطلقًا على وجود أبجدية حرفية من هذا النوع عند غيرهم من الأمم " (٢٤).

وقد أطلق على الحروف التي اكتشفت في شبه جزيرة سيناء أسم كتابة طور سيناء، أو الأبجدية السينائية، وهذه الكتابة البسيطه جائت باللغه الكنعانية القديمة وتعد حلقة وصل بين الهيروغليفية التصويرية والأبجدية، وقد عثر عليها بالمعبد المصرى القديم، عند مناجم الذهب المصريه في سيناء. وقد وجد عدد من هذه النماذج، بالأحرف نفسها في جنوبى فلسطين، وكتبت كل هذه النماذج باللهجة الكنعانية القديمة (٢٥).

ويعلل الخبراء كيفية نشوء فكرة الأخذ بالأحرف بدلا من الصور بأن الكنعانيين، الذين يعملون في مناجم طور سيناء، اهتدوا إلى التدوين بالحروف الهجائيه من خلال اختزالهم الكتابه الهيروغليفية، التي تشير إلى المعاني ومقاطع الكلمات بصور وإشارات، واكتفوا بالحروف الأولى من أسماء الصور، فتكونت عندهم مجموعه من الحروف شكّلت الأبجدية الأولى، وهي مؤلفة من اثنين وعشرين حرفًا، ثم انتشرت هذه الأبجدية، شمالاً وجنوبًا وشرقًا، وصارت أصل الأبجديات في جميع أنحاء الأماكن. بعد أن تطورت في كل منها حسبما اقتضته طبيعة لغة أهله، فمنهم من حافظ على شكلها الأصلى، ومنهم من غيرّ فيها، وأضاف لها أو نقص منها (٢٦).

واتضح لدى العلماء أن الكتابة العبرية بمعنى اليهودية، لم تكن لها أية صلة في نشوء الأبجدية الكنعانية العربية وتطورها، وهي لم تتعد كونها

واحدة من الأبجديات المتفرعة من الأبجدية الكنعانية العربية الأصلية (٢٧).

من مظاهر الحضارة الكنعانية:

فيما يلى سنتناول ثلاثه من مظاهر للحضارة الكنعانية وهى الحياة الإقتصادية لدى الكنعانيين، وما تنطوى عليها من مظاهر حضارية تتمثل في الصناعات، والفنون المرتبطة بها، والعلاقات التجارية، وما انبثق عنها أشكل التعامل الراقى، أما المظهر الثانى، فسوف يتناول البعد الحضارى للعلاقة الثلاثية نظام الحكم / الآلهه / الشعب، وأشكال التنظيم في البعد الثالث: أو المظهر الثالث للحضارة الكنعانية، سيتم تناول الإنتاج الأدبى للكنعانيين.

وتجدر الإشارة هنا إلى ان هذه بعض من مظاهر الحضارة الكنعانية، وأن تناول الجوانب بشكل أوفى يتطلب عشرات الدراسات. كما نشير إلى الملاحظة التي وردت حول مقومات الحضارة الكنعانية، التي يمكن اعتبارها، في الوقت نفسه مظاهر للحضارة الكنعانية.

أولاً الحياة الإقتصادية:

ترجع الحضارة الكنعانية إلى عصور موغلة في القدم، فمنذ العصر الحجرى الحديث، أو العصر النيوليتى (٧٠٠٠ - ٥٠٠٠) ق. م، بدأت هذه الحضارة تنمو، وتتقدم في مجال التمدن، فكان الكنعانيون أول من اكتشف النحاس الطري ثم اهتدوا إلى الجمع بين النحاس، والقصدير في إنتاج البرونز، وبذلك كانوا السابقين في استخدام صناعة التعدين، مما أعطى تلك الشعوب البدائية أدوات وأسلحة فتاكة، وقد أصبح استخدام

البرونز شائعًا، في المدن الكنعانية منذ أواسط الألف الثالثة قبل الميلاد، وبدأت تستخدم الحديد وفي أواخر الألف الثانيه قبل الميلاد [٢٨]. وازدهرت صناعة المعادن في بلاد كنعان في وصف الغنائم التي أخذها تحوتمس الثالث (١٥٠٤ - ١٤٥٠ ق.م) من المدن الكنعانية، إذ نجد ان بين المصنوعات المعدنية، عربات مطعمة بالذهب، وأوتادًا لتثبيت الخيل مطعمة بالفضة، وتماثيل من الذهب، ومن خشب الأبنوس [٢٩].

وقد ازدهرت المدن الكنعانية، وانتعشت، وتفاعلت مع مراكز الحضارة في العالم القديم، فاتخذت منه وقدمت له، وهذا واضح من إنتاج الصناعات المختلفه التي تم الكشف عنها في انحاء مختلفه من منطقة بلاد الشام، وبلدان البحر الأبيض المتوسط، ومنها الخزف، والفخار، حيث تقدمت صناعة الفخار في البلاد الكنعانية، واستخدمت في صناعة العجلة السريعة ذات المحور المركزي، وأنتجت نماذج فخارية متناسقة رقيقة الجدران، وصقلت ولونت بلون بني غامق [٣٠]. وكان الكنعانيون يفضلون الشكل الأجاصي عند صناعة الخزف، وكانوا أول أمرهم يطلون الأوانى باللون الأحمر القرمزى، ويصقلونها صقلاً لامعًا ثم أصبحوا يطلونها باللون العاجى، ويدهنونها باللونين الأحمر، والبني [٣١].

ومن الآثار التي تم الكشف عنها في جبيل، تبين مدى براعة الكنعانيين في صناعة الأواني من النحاس والفضة، والذهب، أما القطع الفنية التي تم الكشف عنها في تل المتسلم (مجدو)، فكان بعضها عبارة عن تماثيل صغيرة منحوتة من العاج، وقطع أخرى مصنوعة من الذهب، والأحجار الكريمة إضافة إلى غيرها من المعادن الثمينة، وتعتبر تلك

المخلفات من أرقى ما أنجزه فنانو ذلك العصر، وإن دلت على شيء فإنما تدل على مستوى فني وحضاري رائعين [٣٢]

كذلك، برع الكنعانيون في صناعة المنسوجات، فصنعوا الأنسجة الرقيقة، والأنسجة الثقيلة، التي تتخللها خطوط ذهبية وفضية [٣٣].

إن المستوى الرفيع من الصناعه الذي توصل له الكنعانيون يحمل دلالتين مهمتين، الأولى: القدرة التقنية العالية، مقارنة بعصرهم، التي استطاع الكنعانيون التوصل لها عبر صناع الآلات، والأدوات المتطورة التي يحتاجها الصانع. أما الثانية: فتدل على المستوى الجمالى الفنى الرفيع الذي ابدع فيه الكنعانيون.

ولا يفوتنا الإشارة هنا إلى معاصر الزيت والعنب التي وجدت عند الكنعانيين، والتي صنعت بمنتهى الدقة والإتقان [٣٤].

وقد تعرض الفن الكنعانى، من منحوتات، ورسوم للتأثير المصري، خاصة في زمن الأسرة الثانية عشرة، عندما خضعت أرض كنعان للحكم المصرى، بمحض إرادتها وتحالفت مع المصريين، وكان في تحالف الكنعانيين مع المصريين مصحلة مشتركه للطرفين، فالكنعانيون في ظل الحماية المصرية حققوا الاستقرار، والأمن، والثراء عن طريق التجارة، مع وادى النيل تاركين للمصريين، حمايتهم من الغزاة المتربصين، بهم من الشرق.

أما مصر فقد ضمنت حدودها الشرقية، من أى عزو قادم لها عبر كنعان[٣٥].

وقد أخذت العلاقات شكلاً راقيًا، حيث كان لمصر سفارة في أرض كنعان، كما تخبرنا رسائل تل العمارنة التي تعتبر من أهم المصادر التي تمكن الوقوف عليها، لمعرفة حال البلاد، وما يهمنا هنا أن مصر كانت قد اتخذت مركزًا مستقرًا لسفارتها في غزة، وأطلقت عليها (با - كنعان)، أى مدينة كنعان، كما أقامت مصر حاميات لها في بعض المدن، مثل: بيسان، ومجدو، ويافا، وعزة، مهمتها حماية طرق القوافل التجارة، أما الملوك الكنعانيين فكان واجبهم، أن يزودوا مصر بما تحتاج إليه من عتاد، ورجال، في حال توجيهها حملات عسكرية لصد الهجمات، التي كانت تهددها من المشرق(٣٦).

ثانيا: تنظيم السياسي:

لا يمكن فهم البنية السياسية في المجتمع الكنعانى، بمعزل عن فهم العلاقة بين الحاكم / الآلهه / الشعب. فالملك يعتبر ابن الآلهه، وقاضي الشعب. أما الآلهه، فتمثل بوضوح روح المجتمع والصراع بين الخير والشر، حيث كان الإله " إيل " وهو الإله العلى العظيم، كما أسلفنا، رمزًا للخير، أما الإله بعل، فقد كان رمزًا للشر.

كان الإله إيل يسيطر في طقوسه على معظم البلاد الكنعانية، إلا بعض الأجزاء، وعلى سبيل المثال، في نهاية القرن الخامس عشر قبل الميلاد، خضعت البلاد الكنعانية إلى سيطرة الإله إيل عدا قسما من شمال فلسطين، وهى المنطقة المجاورة لمملكة إبن داغون (الإسم الذي كان يطلق على دمشق)، حيث كان الشعب من أتباع الإله " بعل "، الذي كان مصدرًا للويلات، والأرزاء، وتأتمر بأمر الأبالسة، فكان الكنعانيون،

يعتقدون، بأنه يسيطر على الغيوم، والأمطار، وبيده كل السماء، كما بيده، من جهة ثانية، الصاعقه المدمرة [٣٧].

ويلاحظ ان الصراع بين الخير والشر، والذي تجلى عبر الصراع بين الإله ايل والإله بعل ظهر جليًا في قلب الهيكل الكنعانى [٣٨].

ويعتبر الشعب نفسه شعب الله، وبتعبيرهم " شعب أيل "، وعلى أساس هذا الإيمان، يترتب على الإله، بإعتقادهم أن يساعد الشعب، كما ترتب على بقية الآلهة، أن تتدخل لدى إيل في حال إحجامه عن المساعدة، ومثل هذا التداخل تتعهده دوما العذراء المحاربه الإلهه " عناة " الملقبة " الخطابة "، وهى عنصر إلهي وعنيف في آن واحد. إنها محاربه إذا اقتضى الأمر، وداعية للسلام متى كان ذلك ضروريًا، وهى إذ تؤنب أباها " إيل " تقوله له محذرة: " يجب أن لا تتمادى الآلهه في تعذيب الشعب، لأن الشعب لن يهلك، وله ديمومة الحياة " [٣٩].

كان نظام الحكم عند الكنعانيين قائم على ما يسمى بتحالف الملوك، حيث يتحالف كل سبعة ملوك، بزعامة أحدهم مؤلفين حلفًا سياسيًا عسكريًا يقيهم شر الاجتياحات، والتهديدات الخارجية، وجميع هذه التحالفات الملكية، كانت تابعه للحكومه المركزية، التي يترئسها الملك الكبير [٤٠].

ويطيع الشعب، الملك ويوليه كافة شؤونه، ويعتبره ابن الآلهة ولكن عندما خرج الملك الكبير عن طول الإله " إيل " كما تخبرنا نصوص

أوغاريت، رفض الشعب القتال إلى جانبه.

فعندما خرج " الملك الكبير " عن التقاليد والأخلاق الكنعانية، متخذًا عشيقة أجنبية، وخرج عن الطقوس الدينية، واستبد في الحكم، مما أوقع البلاد في حاله اضطراب، خلفت المصائب والمجاعات، أحتج الشعب في البداية جماعيًا لدى الملك على تصرفاته، وعندما لم ينجح الاحتجاج، ذهب الشعب إلى المعابد يصلى من أجل اصلاح روح الملك، وشفائه، وعندما استمر الملك في غيه لم يستسلم الشعب، فنراه بعد ان ضاق ذرعا يهاجم القصر، ويرمي الملك بالحجارة حتى الموت [٤١].

مما تقدم تتضح الدرجة الراقية من التحضر لدى الكنعانيين، في ذلك العصر الموغل في القدم، والتي تتجاوز تحضر الكثير من الشعوب المعاصرة فالآلهة " عناة "، تنتقد والدها الإله " إيل "، قائلة: " يجب أن لا تتمادى الآلهه في تعذيب الشعب ". كما تنتقد " الملك الكبير "، عندما يخرج عن رغبة الآلهه والشعب.

إن في ذلك دلالات حضارية مهمة، فهذا المستوى من النقد، ومجابه الذات و الآخر لدى الكنعانى، هو ميزة مهمة يتسم بها العقل، الذي لا يكتفى بنقد الأشياء من حوله، بل وينتقد ذاته يواجهها، مما يدل على مستوى راق من النضج والقدرة والثقه بالنفس، وهى مبعث النشاط والتجديد بعكس الركود والجمود، ومبعث الرقى والتحضر، بعكس التخلف.

كما نلاحظ أن الشعب يمارس الديموقراطية، وبتدرج، فهو أولاً يحتج لدى الحاكم نفسه، ثم يدعو الآلهه لإصلاحه، ثم يأخذ حقه بيده.

وللإنسان قيمة ساميه في الحضارة الكنعانية، ولا أدل على ذلك من قول الإلهه " عناة " للإله " إيل ": (الشعب لنيهلك وله ديمومة الحياة)، فأي إدراك لقيمة الحياة والإنسان أرقى من ذلك؟ وهل تختلف هذه النظرة عن أسمى الحضارات المعاصرة بعد عشرات القررون من العلم والتفاعل الإنسانى؟

ثالثا: الإنتاج الأدبى:

على الرغم نم قلة الآثار والنصوص الأدبيه التي وصلتنا عن الكنعانيين، إلا أنها جاءت على جانب كبير من الأهميه في كونها شكلت مدخلا لفهم نواحى تلك الحضارى.

ولعل أهم النصوص الكنعانية التي تم الكشف عنها النص الكنعانى " اللآلئ "، وهو النص الذي كتبه كاهن أوغاريت الأكبر، المدعو " أيلى ملكو " بأمر من الملك " نيكمد "، وهي تحكى أخبار " الملك الكبير "، وبها دروس وتوجيهات ومواعظ في الأخلاق والعقائد الدينيه والسياسيه والسلوك الشخصى.

من قراءة نص اللآلئ يمكن ملاحظة الحضائص التالية:

١- يلاحظ من دراسة هذا النص أنه نص ناضج أدبيا مما يدل على أن فن الكتابه الأدبيه لم يكن وليد العصر، وأن اللإنتاج الكنعانى يعود إلى مراحل سابقه مهدت له.

٢- جاءت كتابات " إيلى ميلكو " في هذه النصوص بأسلوب وتراكيب لغويه تميزت بالجمل القصيرة المقتضبه. أما الفصل الأخير

فكان يحتوى على نفحه شعريه عاليه واكانت الإنطلاقة الحرة في التعبير تتخلل كل كتاباته يقول الأستاذ ميدكو. مترجك اللآلئ: " مهما كان حكم التاريخ، فمن المؤكد ان الكنعانيين كانوا في مصاف الشعراء الكبار دون جدال " (٤٢).

٣- في منتصف النص تقريبا نقرأ ملاحظة " تقول أن الحد يجب التوقف عن السرد إلى الغد لأن الفتيان قد تعبوا ". نفهم من هذه الملاحظة أن هذه الأخبار عن حكم " الملك الكبير " هي بمثابة دروس ملقاه عن أنباء الملك " نمكد " الذي خلف الملك الراحل. فلدينا إذا سلسله من الدروس التعليميه. ولهذا الغايه إستخدام " ميلكو " أسلوبا لا يخلو من الفهم العميق فن مضمار التربيه. فإبتعد عن السرد التاريخى الممل نسبيا. بل تعمد تحريض التلاميذ عن طريق السرد الذكى لوقائع التريخ. وللأساطير. مضيفا إليها بعض الحكايات القديمه الملائمة للأحداث. وأهمل الكثير من أسماء الأعلام.

ومن أجل إعطاء دروس في علوم الأخلاق. نراه يشدد دائما بصورة مطولة على نقائض وأخطاء العاهل المتوفى. إن التكرار المتواصل والتذكير الوارد في النص، وفيما سبق من نصوص، واللهجه الخاصه المستعمله كل ذلك كان متعمدًا من أجل تسهيل تعليم التاريخ (٤٣).

٤- ما تم عرضه هنا إن هو إلا ملاحظات مقتضبه حول ما قدمته الحضارة الكنعانية، من موروثات أدبيه، وقد أخذ العبرانيون من هذه الموروثات الدبيه الكنعانية وأدخولها في تراثهم العبري، ولا سيما في كتابهم المقدس. كأقوال الحكمه والمزامير ونشيد الأنشاد، وفي بعض

الأساطير التي جاءت في سفر التكوين. وقد أوضحت إكتشافات أوغاريت هذا الأمر بتقديمها الكثير من الموروثات الأدبيه الكنعانية، وسهلت مقانتها بالموجود في التوراة [٤٤].

يقول العالم " ميدكو ": " ما تضمنه كتاب التوراة اليهودي من تراث اختلس اليهود، معظمه لا بل قاعدته الفكرية الأساسيه. عن التراث الكنعانى وتبنوه وكأنه تراثهم الأصيل [٤٥].

ولعل هذا القول لا يبدو غريبًا إذا علمنا أن عالم المصريات الألمانى " أدولف رمام " أثبت في عام ١٩٢٤ في مقالته الشهيره عن بردية آمون أن هذه البرديه الفرعونيه هي أصل سفر الأمثال المنسوب إلى النبى سليمان. وقد دهش العلم كله لهذه الحقيقه حينئذ [٤٦] وأن المزمور رقم ١٠٤ من مزامير داوود في التوراة منقول من النشيد الكبر لأخناتون الفرعونى [٤٧].

* * *

مراجع الفصل السادس

(١) **الموسوعة الفلسطينيه**، القسم العلم، المجلد الثالث، دمشق، ١٩٨٤، ص ٢٨٠.

(٢) إيلى ميلكو، **اللآلئ:** من النصوص الكنعانية، ترجمة ودراسة العالم ه. ى. ديل ميدكو، ترجمة وتعليق مفيد عرنوق، ودمشق، (دون تاريخ) ص ٨.

(٣) **الموسوعه الفلسطينيه**، القسم العلم، المجلد الرابع. دمشق، ١٩٨٤، ص ٤٨.

(٤) د. محى الدين صابر، الحضارة العربيه بوصفها حضارة عالميه المجلة العربيه للثقافه، دمشق، السنة الرابعه، العد السادس، آذار ١٩٨٤.

(٥) د أحمد داوور، **تاريخ سوريا القديم**، الطبعه الأولى، ١٩٨٦، دون ناشر، ص٧٨١.

(٦) **المصدر نفسه**، ص ٧٨٢.

(٧) قسطنتين زريق، **في معركة الحضارة**، دار العلم للملايين، الطبعه الثالثه، بيروت، ١٩٩٧، ص ٢٧.

(٨) **المصدر نفسه**، ص ٣١.

(٩) أحمد داوود، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٥٦.

(١٠) زريق، **مصدر سبق ذكره**، الصفحات ٨٩، ٩٢.

(١١) **المصدر نفسه** ص ٩٤.

(١٢) **المصدر نفسه**، ص ٩٥.

(١٣) د. أحمد سوسه، **حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور**، ورزاة الإعلام بغداد، ١٩٨٧، ص١٨٣.

(١٤) د. محمد أبو المحاسن **عصفور**، **المدن الفينيقيه**، دار النهضه العربيه، بيروت، ١٩٨١، ص ١٤٠.

(١٥) سوسه، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٠.

(١٦) سوسه، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩١.

(١٧) **المصدر نفسه**، ص ١٩٢.

(١٨) زريق، **مصدر سبق ذكره** ص ٩٧.

(١٩) د خير نمر ياسين، **جنوبى بلاد الشام تاريخه وآثاره في العصور البرونزيه**، ومنشورات لجنة تاريخ الأردن، المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلاميه عمان الأردن ١٩٩١، ص ١٥/١٤.

(٢٠) الموسوعه، المجلد الرابع، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٩/٤٨.

(٢١) زريق، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٩/٩٨.

(٢٢) **المصدر نفسه**، ص ٤٣.

obeikandl.com

(٢٣) سوسه، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨٠.
(٢٤) **المصدر نفسه**، ص١٨١.
(٢٥) خير نمر ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٩.
(٢٦) سوسه. **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٨.
(٢٧) **المصدر نفسه** ص ١٨٢.
(٢٨) أحمد داوود، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٥٥.
(٢٩) **المصدر نفسه**، ص ٢٥٥.
(٣٠) ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٦، ١٣٢.
(٣١) الموسوعه الفلسطينيه، **مصدر سبق ذكره**. ج ٣. ص ٦٦٨.
(٣٢) ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨٥، ٢٠٠.
(٣٣) إيلى ميلكو، **مصدر سبق ذكره** ص ٢٥٦.
(٣٤) أحمد داوود، **مصدر سبق ذكره** ص ٢٥٦.
(٣٥) الموسوعه الفلسطينيه، الجزء الثالث، **مصدر سبق ذكره** ص ٦٦٧.
(٣٦) ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨٨.
(٣٧) ميلكو، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١.
(٣٨) **المصدر نفسه**، ص ٩.
(٣٩) **المصدر نفسه**، ص ١١.
(٤٠) **المصدر نفسه**، ص ١٠.
(٤١) **المصدر نفسه**، ص ١١.
(٤٢) **المصدر نفسه**، ص ١٤.
(٤٣) **المصدر نفسه**، ص ١٣، ١٩.
(٤٤) الموسوعه الفلسطينيه، المجلد الرابع، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٨.
(٤٥) الموسوعة الفلسطينية، المجلد الرابع، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٨.
(٤٦) د. أحمد أمين سليم، **دراسات في حضارات الشرق الأدنى القديم**، بيروت ١٩٨٦، دون نشر، ص ١٤٢ - ١٤٣.
(٤٧) **المصدر نفسه**، ص ١٤٣/١٤٢.

* * *

obeikandi.com